فمن الناحية الأولى ظن بعض العلماء أن الشعر أهم من النثر ، وأن مرتبته أعلى منه ما دام قد حظى أكثر منه فى النحو بالعناية والرعاية ، وليس من النادر أن يلتقى المرء بمثل العبارة الآتية : « أما الشعر فى نفسه فهو الدرجة العليا من الكلام كله بعد الكلام الإلهى والكلام النبوى ، فهما فوق كل كلام وفوق كل ذى فوق ، لبلاغتهما وشرف المتكلم بهما ، وما سوى هذين من كلام العرب فيكون على مرتبتين : علياها النظم لما جمع من البلاغة والوزن والتقفية ، وسفلاها النثر لتعريه عن الوزن والتقفية »(١) وبذلك تتضح المكانة التى احتلها الشعر وحده من بين كلام العرب فى هذه الدراسة لما اشتمل عليه — كما قال حيدرة اليمنى — من الوزن والتقفية ، وهذه ميزة مشكوك فيها ، إذ هى ميزة القيود إن كانت للقيود ميزة !!

ومن ناحية أخرى اضطرت الجمل الشعرية المنفردة النحاة إلى متابعتها والبحث عن مسوغاتها وبذل الجهد العنيف فى ذلك مما تعقدت به دراسة النحو ، وكثر بسببه التأويل والتخريج وتنازع الآراء ، ذلك أن الشعر بقيوده اقتضى إخضاع الصيغ ونظم الكلمات وإعرابها إلى طرق خاصة ، وقد تسبب ذلك فى وضع قواعد النحو فى موقف حرج ، إذ لا بد لها أن تفرض سلطانها على تلك الأوضاع المخالفة للصيغ والجمل ، وحينئذ تفترض حلول ذهنية تتوسط بين مقتضى القواعد النحوية ، ومقتضى الموسيقى الشعرية ، فإذا قصرت المسوغات عن أداء تلك المهمة الشاقة كانت « الضرورة الشعرية » هى الوسيلة المعدة للتعبير عن هذا التسليم والقصور .

(ب) الغريب والرجز

الشعر الذى درس لم يكن مطلق شعر ، بل وجه اللغويون جهودهم إلى

---

(١) كشف المشكل فى النحو والتصريف وما فى الشعر عليه المعول ص ٤٥٤ .